



بيادق الغيب

رداد السلامي

الاستهلال

في مديح الصمت والهزيمة الظاهرة

"لا يولد الشر ضاحكاً دائماً، هذه هي خدعته الكبرى.
غالباً ما يولد الشر في هيئة توقيع صامت على ورقة، أو همسة خافتة في أذن
طامع، أو نظرة استعلاء عابرة لم ينتبه لها أحد.
في موازين السماء، لا يُقاس النصر بعلو الصوت ولا ببريق الذهب في
الخزائن.
الله لا يعجل لعجلة عباده، وتلك هي الطمأنينة المرعبة؛ أن الله يُملي.
يمد الحبل مداً، حتى يظن الظالم أن السماء قد غفلت عنه، وأن قوانين
الفيزياء قد خضعت لسطوته.
وفي اللحظة التي يكتمل فيها الغرور، وتغلق الدائرة، يتحرك "القدر" بحركة
واحدة، هادئة وحاسمة، كحجر يسقط في بركة راكدة، ليقرب العالي سافلاً.
نحن هنا لنحكي قصة ذلك الحبل الممدود، وتلك العقدة التي نُسجت في
الظلام، وكيف حلّها نور اليقين في وضوح النهار."

الفصل الأول

ليلة إطفاء المصابيح

المكان: قصر "الحاج عثمان الأرناؤوط" – رمز الوجاهة والتقوى الظاهرية.

الزمان: ليلة شتوية، الريح فيها تعوي كذئب جريح.

كان الحبر على الورقة لا يزال رطباً، يلمع تحت ضوء المصباح الزيتي الخافت كلمعة عين غادرة.

جلس "عثمان"، الرجل الذي انحنت لعمامته هامات الرجال في السوق، يمسح بيده الخشنة على الورقة، وكأنه يتحسس عنق فريسة ذبحها لتوّه.

لم تكن الورقة سوى حجة أرض مزورة، انتزع بها ميراث ابن أخيه اليتيم "يحيى"، مستغلاً صغر سن الصبي وجهل الأرملة.

قال عثمان بصوت مبحوح، يخاطب الشاهد المرتشي الجالس في الظل:

— "الأرض تحتاج ليدٍ قوية تحميها، واليتيم يحتاج لمالٍ يأكله، لا طين يدفن فيه، نحن لم نظلم، نحن وضعنا الأمور في نصابها."

كان يرر. وتلك هي السمة الأولى للشر في المفهوم القرآني: "التزين". الشيطان لا يدعك تفعل الشر وأنت تشعر أنك شرير، بل يجعلك تشعر أنك مصلح، وحكيم، وواقعي.

في الغرفة المجاورة، بعيداً عن دفء الموقد، كانت الأرملة تضم ابنها "يحيى" إلى صدرها.

لم تصرخ، لم تشق جيباً، كانت تنظر إلى السماء عبر نافذة مكسورة، وعيناها تفيضان بدمع بارد.

هنا تتجلى المفارقة الموجهة.

في الطابق الأسفل، كان عثمان يظن أنه امتلك "المستقبل" بتوقيعه.

وفي الطابق الأعلى، كانت الأرملة تطلق "سهام الليل" بدعواتها.

لو كشف الغطاء لعثمان، لرأى أن القصر الذي يجلس فيه قد بدأت أساساته تتآكل في عالم الغيب منذ تلك اللحظة.

هو يرى الأرض بستاناً، والقدر يراها مقبرة لأحلام ذريته.

هو يرى يحيى طفلاً مهزوماً، والقدر يرى فيه النواة التي ستكسر صخرة جبروته بعد عشرين عاماً.

نام عثمان تلك الليلة قرير العين، مطمئناً لذكائه، ولم يدرك أن الله قد أوكّل به سنة الاستدراج؛ سنفتح عليه أبواب كل شيء، حتى إذا فرح بما أوتي، أخذناه بغتة.

الفصل الثاني

حصاد السراب (سنوات التخمر)

مر عشرون عاماً. رقمٌ يبدو على الورق مجرد حساب، لكنه في ميزان الأرواح كان كافياً لتغيير كيمياء الدم.

في قصر عثمان الأرناؤوط:

اتسعت الأرض، وضاق الصدر. هذه هي المعادلة التي لا يدرسونها في كليات الاقتصاد، ولكنها قانون صارم في "اقتصاد الغيب".

أصبح عثمان الآن شيخاً يجر قدميه على سجاد تبريزي فاخر، لكنه يشعر ببرودة تسري في عظامه لا يطفئها فحم ولا صوف.

لقد تحققت نبوءة "الاستدراج". المال تدفق كالسيل، لكن "البركة" تبخرت.

كان ينظر من الشرفة إلى ابنه البكر "مراد" مراد الذي تربى على لحم نبت من تلك الأرض المغتصبة.

لم يكن مراد شريراً بالمعنى التقليدي، بل كان "فارغاً". شابٌ بلا قضية، وبلا نخوة، وبلا عمود فقري أخلاقي.

رآه عثمان يصرخ في وجه خادم عجوز، ويتمايل في مشيته بزهو أجوف.

أحس عثمان بغصة، لقد أراد أن يورث ابنه "العز"، فورثه "الترف". والترف إذا خالط دماً تأسس على سحت، أحال الرجولة إلى مiece، والحكمة إلى رعونة.

همس عثمان لنفسه، وصوته يرتجف خوفاً من حقيقة بدأت تتكشف:

"جمعتُ لهم الدنيا، ولكنني أضعتُ منهم أنفسهم. هل أنا أربي ذئاباً

ستنهشني في شيخوختي؟"

الشر هنا لم يعد فعلاً يرتكبه عثمان، بل أصبح نظام حياة يحاصره.
أصبح سجين ما كسبت يداه، الخوف من زوال النعمة أصبح أشد إيلاماً من
فقر البدايات.

في الطرف الآخر من المدينة (حارة الحرفيين):
في دكان صغير تفوح منه رائحة الخشب والنشارة، كان "يحيى" يقف منحني
الظهر فوق قطعة خشبية ينحتها بتركيز شديد.
يحيى الآن شابٌ صلب، كفاه خشنتان، وجبهته تلمع بعرق الجهد الحلال.
لم يرث الأرض، فتعلم أن يرث "مهارة يده".
حين سُلِبَ حقه وهو طفل، بكى.

لكن أمه (تلك المرأة التي فهمت سر القدر) علمته درساً غير مجرى حياته:
"يا بني، الله أخذ منك الطين، ليعطيك الدين والعزيمة، الطين يملكه أي
أحد، أما عزة النفس فلا يملكها إلا الأحرار."

نشأ يحيى حرّاً، لا يكسر عينه أحد، لأنه لا يأكل من فتات أحد.
الحرمان هذّبهُ، وصقل روحه كما يصقل الإزميل الخشب.
كان يحيى ينظر إلى الناس نظرة "المستغني بالله". لم يكن يملك ثمن دابة،
لكنه كان يمشي في السوق كملك متوج بالرضا.

في عينيه بريق ذكاء حاد؛ ذكاء من عارك الحياة بلا ظهر يحميه، فاكتشف
أن الله هو الظهر والسند.

نقطة التقاطع

لا بد للخطين المتوازيين أن يتقاطعا لتشتعل الشرارة.

يقرر "مراد" (ابن عثمان المدلل) أن يبني مجلساً جديداً للسمر واللهو في طرف الأرض الزراعية (تلك التي سُلبت). يحتاج إلى زخارف خشبية فريدة، ويُقال إن أمهر من ينحت الخشب في المدينة هو شاب يدعى "يحيى".

يذهب مراد إلى يحيى.

يدخل الشاب المترف (الذي يملك الأرض زوراً) إلى دكان الشاب العصامي (المالك الشرعي الحقيقي).

ينظر مراد باشمئزاز إلى نشارة الخشب على ثياب يحيى، ويقول بغطرسة:

— "أريد أفضل ما لديك لتزين مجلسي الجديد في مزرعة الأرناؤوط.
والمال ليس مشكلة."

يتوقف يحيى عن العمل. يرفع رأسه ببطء. الاسم "مزرعة الأرناؤوط" وقع على أذنه كصوت الرعد البعيد.

ينظر في عيني مراد، فيرى فيهما انعكاساً مشوهاً لتلك الليلة المظلمة قبل عشرين عاماً.

يحيى لا يرى "زبوناً"، بل يرى "أثر الجريمة" يمشي على قدمين.

يبتسم يحيى، ابتسامة غامضة، هادئة، مرعبة في ثقتها، ويقول:

— "الخشب يا سيد مراد، ذاكرة حية، لا يطاوع إلا اليد الطاهرة، ولا يزين إلا البيوت التي بنيت على تقوى، أخشى أن خشبي سيتشقق إن وضعتَه في مجلسكم... فبعض الأماكن تلفظ زينتها."

ذهل مراد. لم يعتد أن يحدثه "أجير" بهذه اللهجة.

— "أنت ترفض العمل لأسياذك؟"

— "أنا سيد إزميلي، وأعمل لمن يطيب لي، أما السيادة، فله الله الواحد القهار."

الفصل الثالث

النار والرماد (بداية التآكل)

لم يبتلع "مراد" الإهانة. كبرياء "ابن الباشا" الذي تغذى على الحرام لا يحتمل أن يرفضه نجار.

في منطق الطغاة الصغار: "من لا يركع، يجب أن يُكسر".

في ليلة مقمرة، اشتعلت النار في دكان يحيى.

لم يكن حريقاً بالخطأ، كانت رائحة "الكيروسين" تفوح نكاية في الأنف، وتعلن أن الفاعل يريد إيصال رسالة: "هذا مصير الخشب الذي يأبى دخول قصورنا".

وقف يحيى أمام دكانه الذي تحول إلى كومة من فحم، تحلّق الجيران حوله، بعضهم يهمس بالشماتة، والبعض بالشفقة.

جاءته أمه، العجوز التي انحنى ظهرها، وقفت بجانبه وسط الرماد.

توقع الجميع أن يصرخ يحيى، أن يشتم عائلة الأرناؤوط، أو ينهار باكياً.

لكن يحيى فعل ما هو أعجب.

أمسك بحفنة من الرماد الساخن، ورفعها للسماء ثم ذرها في الهواء، وقال بصوت سمعه الجميع:

— "اللهم إن كان هذا ذنبي فاغفره، وإن كان ظلم عبادك فأرنا فيهم عجائب قدرتك.. النار تأكل الخشب، لكنها لا تأكل الأرزاق، فالأرزاق في السماء."

كان مشهداً "أيوبياً" بامتياز.

لكن، في نفس تلك الليلة، وفي الجهة الأخرى من المدينة، كانت هناك "نار"
أخرى تشتعل، نار باردة لا تُرى بالعين.

في قصر عثمان:

استيقظ عثمان على صراخ وكيل المزرعة.

— "يا جناب الباشا، المصيبة!"

— "ماذا حدث؟ هل احترق المحصول؟"

— "لا يا سيدي، ليت النار أكلته، كنا سنعرف الفاعل.

الأمر أسوأ.. الماء! البئر الرئيسية في الأرض المغتصبة.. غارت مياهها فجأة!
والماء المتبقي خرج مالحاً أجاباً كأنه السم، أحرق جذور الشجر!"

تسمر عثمان في مكانه.

الأرض التي سرقها من أجل خصوبتها ومياهها، قررت فجأة أن تعلن
العصيان.

تذكر عثمان فجأة وجه "يحيى" الطفل، وتذكر دعاء الأرملة.

حاول طرد الفكرة "هذه ظواهر طبيعية.. جيولوجيا.. جفاف موسم.. لا
علاقة للسماء بذلك".

لكن الرعب كان قد بدأ يدب في أوصاله.

الفصل الرابع

لعنة "الاستدراج"

مرت أشهر قليلة، وضغط الأحداث يتسارع ..
عثمان يحاول حفر آبار جديدة، ينفق الملايين، والماء يهرب منه وكأنه يملك إرادة.
المال الذي جمعه بدأ يُستنزف في محاولة "إنقاذ" الأرض الملعونة.
وفي المقابل، ماذا حدث لمراد (الابن)؟
ظن مراد أنه بحرق دكان يحيى قد انتصر، لكنه فتح على نفسه باباً لم يحسب له حساباً.
أحد الجيران (شاهد صامت) رأى رجال مراد يشعلون النار، لكنه خاف من الشهادة. غير أن "الخوف" تحول إلى "ابتزاز".
بدأ الشاهد يبتز مراد.
ومراد، بغباء المترف، بدأ يدفع له من خزينة والده خلسة.
تحول مراد من "ظالم" إلى "مختلس" من مال أبيه ليغطي جريمته.
اكتشف عثمان نقص الأموال. واجه ابنه.
كانت لحظة تعرية نفسية قاسية.
عثمان يصرخ: "أنا سرقْتُ لأجعلكم أسياداً، وأنت تسرقني لتستر فضائحك؟"
رد مراد ببرود مرعب، برود من تشرب الشر حتى النخاع:

— "أنت علمتني يا أبي أن الغاية تبرر الوسيلة. أنت زوّرت توقيع عمي
لتأخذ الأرض، وأنا أخذت من مالك لأحمي سمعتنا، نحن من طينة واحدة
يا أبي.. لا تدّعي الشرف الآن."

سقطت الكلمات كالصاعقة على عثمان.

رأى "عمله" يتجسد أمامه في صورة ابنه، أدرك حينها المعنى المرعب للآية:
(يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ).

الخراب لم يأت من يحيى.. الخراب نبع من داخل القصر.

الفصل السابع

رحيل الظلال

سقطت إمبراطورية "الأرناؤوط" كما تسقط ورقة خريف يابسة، بصمت ودون جلبة.

لم يكن هناك مزاد علني صاخب، فالخزي يفضل العتمة.

باع "مراد" القصر والأرض بثمن بخس لتاجر غريب سدد عنه ديون القمار، وحمل حقيبة واحدة، حقيبة صغيرة لا تتسع إلا لملابسه وخيخته.

خرج مراد من البوابة الكبيرة مطأطأ الرأس، لم يلتفت إلى الورا.

لم يودع الجدران التي شهدت طغيانه، لأن الجدران – كما يعلم الجميع – لا تحب من خانها.

كانت الريح تكنس وراءه الغبار، وكأن الأرض تطهر نفسها من آثار أقدامه.

انتهى العز المزعوم. مات عثمان (أو بقي حجراً لا ينطق)، وتاه مراد في زحام المدن البعيدة، مجرد نكرة آخر يبحث عن مأوى، يطارده شبح ماضٍ لن يعود.

هدأ كل شيء.

عادت السكينة إلى المكان، لكنها كانت سكينة موحشة، سكينة المقابر بعد انصراف المشيعين.

الخاتمة

غيث من سماء بعيدة

المكان: عند سياج "الأرض البور".

الزمان: ساعة أصيل، والشمس تجنح للمغيب، تصبغ الأفق بلون الشفق الأحمر.

وقف "يحيى" هناك.

الشيب قد غزا رأسه، وتجاعيد الزمن حفرت مساراتها حول عينيه، لكن ظهره كان مستقيماً كآلف القلم.

لم يدخل الأرض كفاتح، ولم يكسر القفل، وقف فقط عند الحد الفاصل، يتأمل المشهد.

كانت الأرض أمامه لوحة من الخراب، الأشجار التي كانت يوماً مثقلة بالثمار أصبحت جذوعاً نخرة كعظام الموتى.

التربة تشققت من العطش حتى بدت كأفواه تطلب الماء ولا تجده.

عشرون عاماً من الظلم كانت كافية لامتنعاص "روح" المكان.

تساءل يحيى في سرّه: "هل يمكن للموت أن ينجب حياة مرة أخرى؟ هل يغفر الطين خطايا البشر؟"

مد يده عبر السياج، ولمس غصناً يابساً لشجرة زيتون قديمة، الشجرة التي كان والده قد غرسها يوم مولده، تفتت الغصن بين أصابعه وتحول إلى غبار.

شعر بغصة في حلقه.

العدالة تحققت، والظالم رحل، لكن الثمن كان فادحاً، الأرض ماتت.

في تلك اللحظة، هبت نسمة باردة.
ليست ريح سموم كما اعتادت هذه البقعة في السنوات الأخيرة، بل ريحاً
تحمل رائحة الرطوبة والندى.
رفع يحيى بصره إلى السماء.
كانت الغيوم تتجمع ببطء، غيوم داكنة ثقيلة، لكنها ليست سوداء بلون
الغضب، بل رمادية بلون الرحمة.
ساد صمت مطبق، وكأن الكون يحبس أنفاسه انتظاراً لقرار سماوي.
ثم، سقطت القطرة الأولى.
سقطت على كف يحيى الخشنة، باردة، نقية، وكأنها دمعة ملك.
تلتها قطرة أخرى، ثم أخرى.
بدأ المطر يهطل، لم يكن عاصفة هوجاء، بل كان "غيثاً". هادئاً، متواصلاً،
حنوناً، يغسل وجه الأرض المتعب، ويمسح عنها أدران السنوات العجاف.
رأى يحيى الماء يجري في الشقوق العطشى، وكأن الأرض تشهق بالحياة.
رائحة الطين المبلل (تلك الرائحة المقدسة) عبقت في المكان، وملأت
صدره.
وبينما هو يراقب، تحت وقع المطر المنهمر، لفت نظره شيء صغير عند
جذع الزيتون الميتة.
فسيلة خضراء صغيرة، دقيقة جداً، تشق قشرة الأرض الصلبة وتخرج رأسها
بعناد نحو السماء.
ابتسم يحيى، لم تكن ابتسامة نصر، بل ابتسامة "يقين".
أدرك حينها أن الحكاية لم تنته، بل بدأت الآن.

أدرك أن الله لا يترك الأرض للظالمين إلا ريثما يختبر الصادقين، وأنه ما دامت السماء تمطر، فإن الجذور الحية في باطن الأرض لا تموت. استدار يحيى عائداً إلى بيته، وترك المطر يكمل مهمته في إعادة كتابة التاريخ.

كان يمشي واثق الخطوة، وفي قلبه يتردد صدى الآية الكريمة التي لخصت حياته كلها:

{فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ}.

(انتهت)